فلسفة الشعر

من السهل كتابة مجلد حاشد بعشرات المسائل التي تشملها فلسفة الشعر فان الاسهاب في هذه الابحاث أهون من الاقتضاب، وليس من اليسور أن يتناول المتأمل المدقق في فراغ ضيق محدود الا نقطاً يسيرة معدودة : وهذا ما أحاوله في هذه الكلمة الوجيزة

الشعر في حقيقته لغة الشعور وتصويره ، ولكنه ليس بلغة الشعور السطحي أي أنه يعبر عما وراء المظاهر الواقعية . وهو في جماله المستحب إنما يعبر بلغة الانسانية في طفولتها ، وبلغة الوجدان التي لا يسيطر عليها العقل . بيد أن العقل الانساني في تطور عظيم وفي نضوج مستمر على حساب سواه من المواهب الحسية، ولذلك يواجه الشعر بتعاقب الأجيال خطر المنطق وسيطرته ، ومحاولة الحقيقة العلمية أن تسود الحقيقة الشعرية

ولغة الإنسانية في طفولتها متصلة بالأساطير والخرافات وبالتعاليل الساذجة وبالروعة من مظاهر الطبيعة وتفاعيلها ، وهذه تكسب الشعر مسحة جميلة لان كل هذه الاشياء متصلة بالشعور وبالعقيدة الدينية التي هي بمثابة عواطف مركزة ، ونحن نقول الشعر بعواطفنا ويتصل فهمنا به عن سبيل العواطف ، ولذلك نميل الى نعت هذا النوع من الشعر «بالشعر الصافي »

ولغة الانسانية في رجولتها النامية في هذا الزمن وفيما بعده هي لغة المنطق والذكاء والفلسفة العلمية والحكمة وما اليها ولذلك لا نميل إلى اعتبار الشعر الذي تهدمه هذه اللغة الينا شعراً صافياً ونراه بعيداً عن العوطف والوجدان

على أن هناك محاولات جديدة في العهود الاخيرة ترمي إلى الجمع بين الصورتين بحيث تستوعب نفحات العاطفة ثمار العقل عند التعبير الشعري . ومعنى هذا أن تتحول الفلسفة والحكمة والعلم إلى إيمان صادق في نفس الشاعر فتتمثل في شعوره ونظمه وهذا لن يكون بطبيعة الحال تعمداً عن طريق الصناعة ، وانما يكون حيث يوجد الشاعر الذي له بطبيعته وتربيته هذه النزعة فتصير عواطفه وإيمانه وعلمه وفلسفته وحدة تكاد لا تقبل التجزئة

فأما مثال « الشعر الصافي » فتجده عند أبي نواس وابن خفاجة وشلي وكيتس ووردزورث مثلا وأما « الشعر العلمي المنطقي » فأظهر أمثلته بيننا شعر الاستاذ الزهاوي. وأما شعر «العاطفة الفلسفية» التي تقدم لك احساسا صادقا تمتزج فيه نوافح الوجدان بأحكام العقل امتزاجاً شائقاً مقبولا ففي أمثلة مختارة من شعر أبي العلاء

المعرى وشعر المتنبى وإليك أخلد الأمثلة لتلك دالية أبى العلاء المشهورة

وفى رأيى أن هذا النوع الأخير من الشعر لايقل سمواً عن « الشعر الساذج الصافى » ؛ وربما جاز لنا أن نعده أسمى أنواع الشعر ، بل شعر المستقبل . ولما كان الشعر (كالادب عامة) نقداً للحياة لم يكن من الغرابة ولا من المجازفة أن نقدم هذا الرأى حينما نلحظ متجه التطور للعقل الانسانى

وبين أعلام أدبائنا من لايرضيه ظهور هذه النزعة فى الشعر الانجليزي وفى الشعر العربى الجديد ويؤثر الشعر الفرنسى عليهما ، وبينهم من يرى أن الشعر ينبغي أن يكون قصراً على الظرف واللهو والمداعبة والاستهتار أحياناً ولكننا لانعرف ان الحياة هى هذا وحده ، ولا نرى الشعر الذى يقتصر على هذه النماذج شعراً جامعا سواء فى روحه أو مشتملاته . ولا يكفينى أن يكون الشاعر مصوراً ، ولا يرضينى أن يكون حاكيا وانما يعنينى أن يكون أيضاً خالقاً لمثل أعلى ! وهذا مانقله تواً إلى دائرة الفيلسوف على أنى - مع اعترافى بذلك - اكرر أن الشاعر الفلسفى النزعة الذى لا تخاصم عواطفه عقله ، والذى يرضى عقله أن يعهد إلى العواطف فى أن تعبر عنه بلغتها هو أسمى الشعراء على الاطلاق

وإذا آمنت معي بهذه النظرية لم تجد مانعاً لان تهضم الحقيقة الشعرية أية حقيقة علمية . وهذا الاستاذ ترفليان صاحب كتاب (تاميرس - Thamyris) لايرى مايمنع هضم الزراعة والهندسة والطب الخ فى الشعر ، فالعبرة فى كل ذلك بتأثر عواطف الشاعر بكل هذا ثم بطريقة أدائه، وهل هو يجعل من العالم شعراً ، أم يجعل من الشعر علماً وهذا شوقى بك نظم كما نظمت فى تربية النحل فكانت قصيدته المشهورة فى هذا الموضوع من أجمل وأنفس شعره

وكما أن خصب التربة شرط أساسى فى مقدمة العوامل لحسن إنتاجها، أو كما أن لكل تربة ماهو أصلح لها من غرس، فكذلك لاينتظر أن يثمر أى نوع من الشعر بدرجة واحدة فى كل ذهن ، بل لا عجب إذا رفضته بعض الأذهان . وقبول الشعر هو أثر لنوع من الايحاء ، وليست كل النفوس سواء فى التأثر بايحاء معين ، ومن ثم كان من العدل أن لا تلقي العيب على الشعر وحده إذا لم يكن له أثر محسوس فى بيئة معينة ليس لها الاستعداد الكافى للتأثر به وإن كانت لها القابلية للتأثر بسواه ، فهذه كلها أمور نسبية ليس من الحكمة والصواب أن تكون موضع الجزم والتحتيم

ومما يشرف الشعر أن يمثل بيئته أصدق تمثيل ولا يكون فى مجموعه غريباً عنها ولكن مما يشرفه أكثر أن يمثل فى نواح منه الحقيقة الانسانية الشاملة وأن لايكون مجرد مرآة بل روحاً خالقة حافزة إلى جانب ذلك .

وقد أشرت غير مرة الى « الحقيقة الشعرية » كشيء يختلف عن « الحقيقة العلمية » وأراني مطالبا بشيء من التفسير، فأقول إن « الحقيقة العلمية » تحتم التعريف الصادق منطقياً وواقعياً، بينما « الحقيقة الشعرية » لاتحتم الا صدق الخيال والاحساس . ومن الجائز أن يقول شاعر مريض أوسليم شعراً لايمكن أن يوافق أبسط مبادىء العلم أو المنطق أو يكون كله شذوذاً عجيباً، ومع ذلك نعد هذا النظم ذا « حقيقة شعرية » لأنه يعبر بصدق واخلاص تام عن نفسية ذلك الشاعر فى ظروف خاصة، ويمثل حقاً وحدة العواطف والايمان الذى فى لبه . ومن أجل ذلك أميل إلى الاستعانة بعلم النفس فى نقد الشعر فهو أولى من سواه من العلوم الشكلية فى تحليل وتقدير لغة النفس وصورها

ويميل بعض النقاد إلى النظر فى مسألة الانتاج الشعرى نظرة فلسفية، ولا بأس بذلك . ومعظمهم يرى أن الاقلال أنسب للاتقان الفنى فى الشعر . أما أنا فرأيى الخاص هو أن الشاعر المطبوع مكثر بفطرته وليس مقلا، فاذا لم يظهر له شعر كثير فليس هذا مما يناقض نظريتى، بل يكون معناه أن شعره تحول إلى منافذ أخرى فى حياته، فقد يكون لهواً أو رياضة ذهنية أو رقصاً أو عزفاً أو غير ذلك، وهكذا تتخذ قوته الشعرية مظاهر مختلفة وربما لم يكن من سبب لذلك سوى تهيب النظم وانصرافه عنه لعوامل اجتماعية أو شخصية ومن شيوخ شعرائنا المطبوعين الذين نبذوا الاحجام شوقى ومطران، وهما من أكثر الشعراء انتاجاً، وكانما المرانة قد ساعدت على انضاج مركز الطبع الشعرى فى ذهنيهما، فأصبحا تحت تأثير فسيولوجى لايهدأ، وهو ذو مستوى خاص فى كل منهما لايضعفه غير الكلال، فلا يفسد قيمة إنتاجهما الاكثار مادام ذلك طبيعيا وعندى أن الاقلال المصطنع لايقل سوءاً وقبحاً عن الاكثار المصطنع، وانما الجمال يكون فى إطلاق النفس الشاعرة على سجيتها .

وما دمنا قد أشرنا إلى الايحاء وتأثيره فلا بد من كلمة عن لغة الشعر. وخيرها عندى ماناسب المقام لفظاً وجرساً بحيث يكون اللفظ والمعنى وحدة متماسكة فى تأدية الاحساس الشعرى ونقله اليك، ولذلك أوثر فى كل بيئة الموسيقية الشعرية التى توافق روحها . ويعلم القراء أنى لست من أنصار اللهجة العامية، ولكنى ارتاح إلى تمصير العربية أو تعريب المصرية بحيث يظهر فى أدبنا المصرى روح هذا الوطن الرقيق الوديع وهو مايمثله شعر البها زهير أصدق تمثيل، وقد يمثله شعر ابن قلاقس وابن النبيه وابن نباتة بعض التمثيل وأما الرجوع بنا إلى لهجة العصر الأموى والعصر العباسى فليس من التجديد ولا من انصاف بيئتنا فى شيء . وأرى بيئتنا المصرية الحاضرة متفرنجة فلا يمكن تجريد شعرنا العصرى من روح التفرنج، ولن يخاف ذلك الا كل متصنع يحتمى خداعاً أو جهلا منه بفلسفة الشعر - وراء الغيرة على اللغة، حينما هو يسيء بذلك إلى لغته وشعره ؟

أحمد زكى أبو شادى